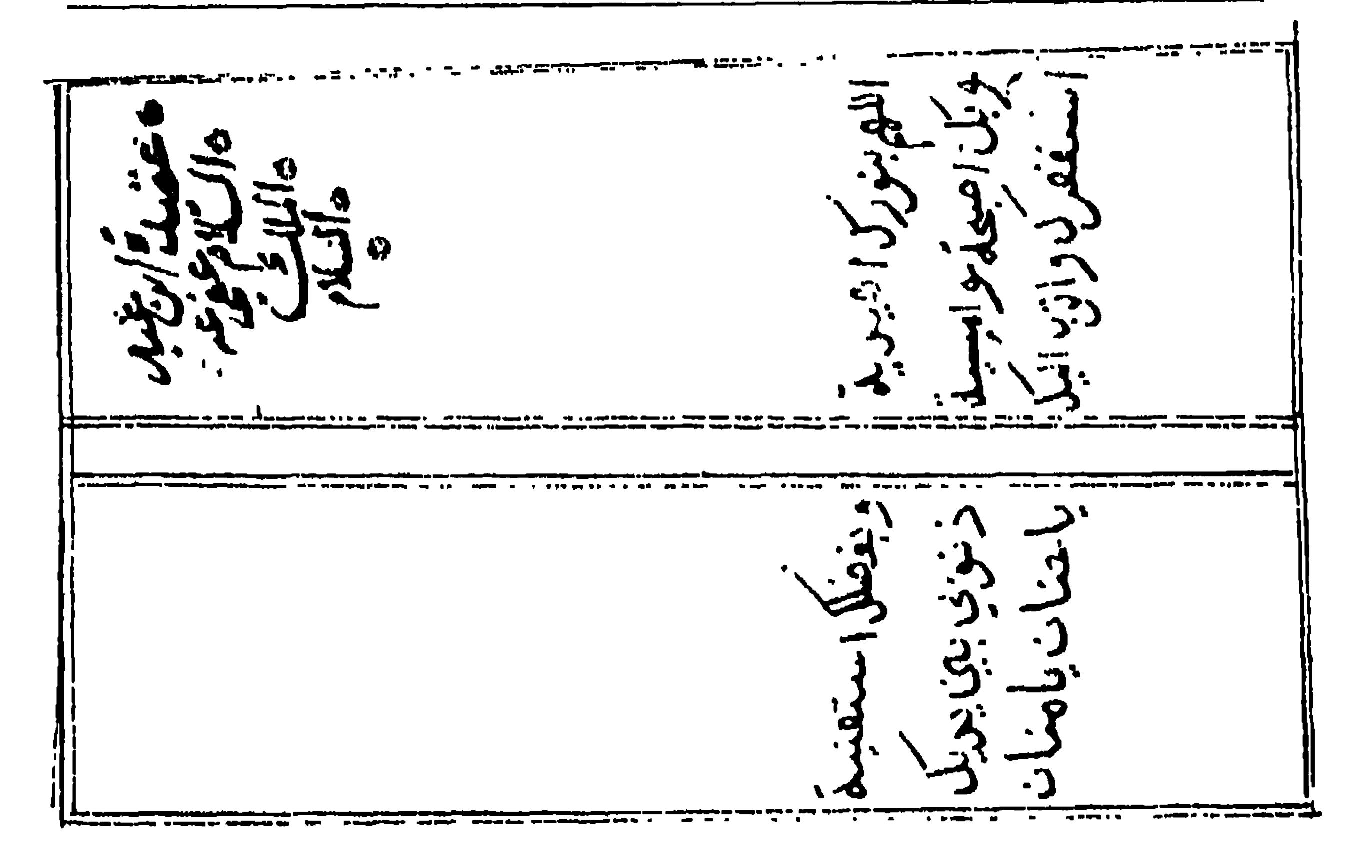
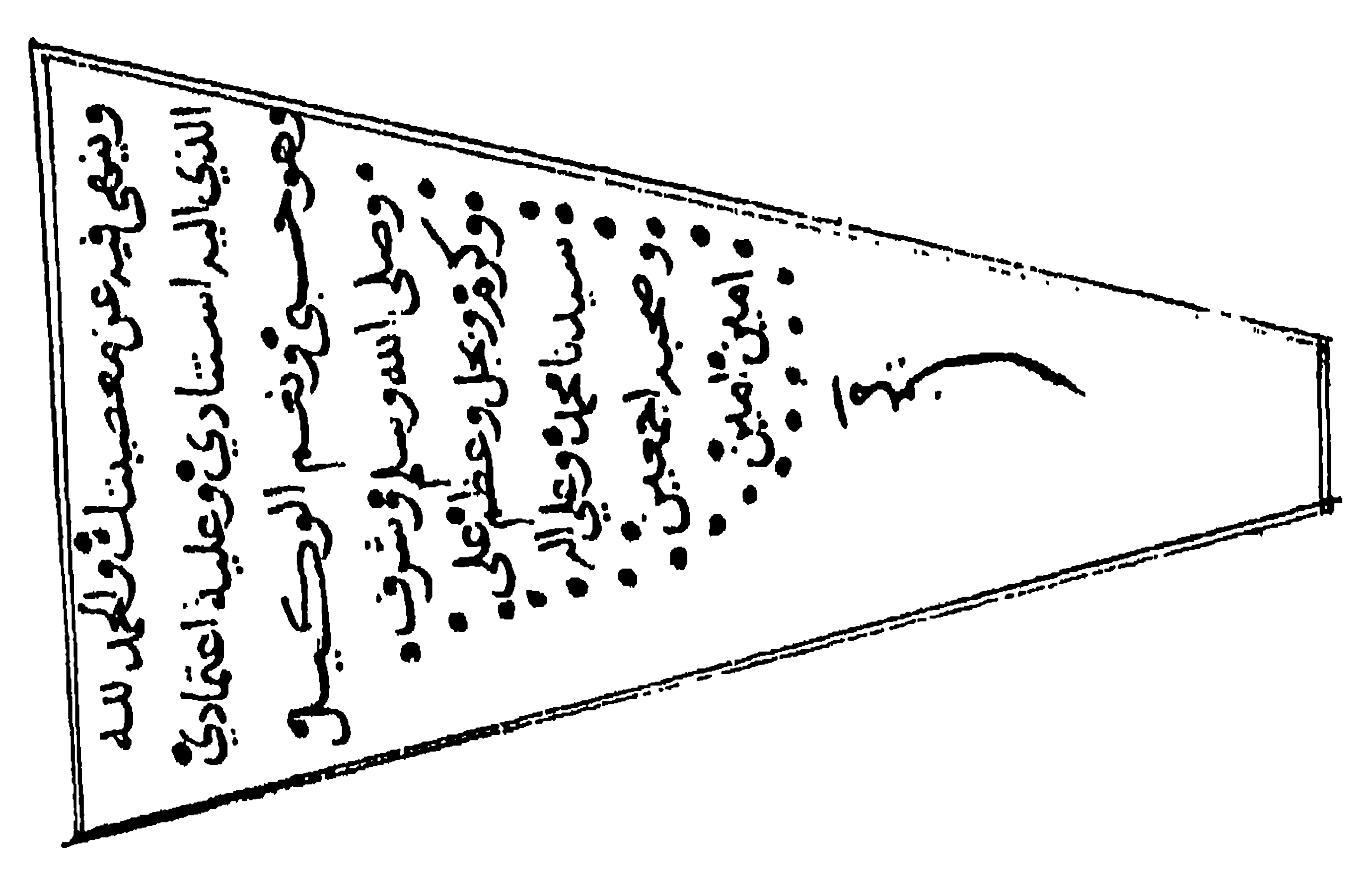
المِلحَة في اعتِقَاد أهْلِ الحَقِّ

للعزّ بن عبد السّلام





راموز للورقة الأولى والأخيرة من النسخة (ع) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام عزُّ الدين أبو محمد عبدُ العزيز بنُ عبدِ السّلام السُّلَمي الملقّب بسلطان العلماء رحمه الله تعالى :

الحمدُ للّهِ ذي العِزّة والجلال ، والقُدرةِ والكمال ، والإنعام والإفضال ، الواحِدُ الأحَد ، الفَرْدُ الصَّمَد ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُواً أحد ، وليس بجسمٍ مُصَوَّر ، ولا جوهرٍ محدُودٍ ولا[1] مُقَدَّر ، ولا يُشْبِهُ شيئاً ، ولا يُشْبهُهُ شيءٌ ، ولا تُحيطُ به الجِهات ، ولا تَكْتَنِفُه الأرضُون ولا السَّماوات[2] ، كان قبلَ أنْ كَوَّنَ المكان ، ودبَّر[3] الزمان ، وهو الآن على ما عليه كان ، خلَق الخَلْق وأعمالَهم ، وقدَّر أرزاقهم وآجالَهم ، فكلُّ نِعمةٍ منه فهي[4] فضلٌ ، وكُلُّ نِقْمةٍ منه فهي[5] عَدْلٌ : ﴿ لَا يُسألُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، استوى على العرشِ المَجيد على الوجْهِ الذي قالَه ، وبالمعنى الذي

---

(١) سقطت من (س) و(ب) .

(٢) ع : « ولا تكتنفه الجهات ، ولا تحيط به الأرضون ولا السَّماوات » .

(٣) ع : « زمّن » .

(٤) سقطت من (ع) .

(٥) سقطت من (ع) .

أراده ، استواءً مُنزَّهاً عنِ المُماسَّة والاستقرار ، والتمكُّنِ والحُلُول والانتقال ، فتَعالَى اللّهُ الكبيرُ المُتعال ، عمّا يقوله أهلُ الغَيِّ والضَّلال ، بل لا يحملُه العرشُ ، بلِ العرشُ وحَمَلَتُه محمولون بلُطْف قدرتِه ، ومقهورون في قَبْضتِه ، أحاط بِكلِّ شيءٍ عِلماً ، وأحصى كُلَّ شيءٍ عَدداً ، مُطَّلِعٌ على هَواجِس الضَّمائر وحركاتِ الخواطر ، حَيٌّ ، مُرِيدٌ ، سميعٌ ، بصيرٌ ، عليمٌ ، قديرٌ ، متكلِّمٌ بكلامٍ[1] قديمٍ أزليٍّ ليس بحَرْفٍ ولا صوت ، ولا يُتَصوَّر في كلامه أَنْ يَنْقلبَ[2] مِداداً في الألواح والأوراق ، شَكْلًا ترمُقهُ العُيونُ والأحداق ، كما زعمَ أهلُ الحَشْو والنِّفاق ، بل الكِتابةُ مِن أفعال العِباد ، ولا يُتَصَوَّر في أفعالهم أنْ تكونَ قديمةً ، ويجبُ احترامُها لدلالتها على ذاته[3] ، كما يجب احترامُ أسمائه[4] لدلالتها على ذاتِه[5] ، وحُقَّ لما دَلَّ عليه وانتَسب إليه أن يُعْتَقَدَ عظمتُه وتُرْعَى حُرمتُه ، ولذلك يجبُ احترامُ الكعبةِ والأنبياء والعُبَّاد والعلماء[6] ؛

أمُـرُّ علَى الـديارِ ديـارِ لَيْلَى ... أُقبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبِي ... ولكنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا[7]

(١) قوله : « قدير . . الخ » سقط من (ع) .
(٢) ع : « ينقلب كلامه » .
(٣) س : « كلامه » .
(٤) ب : « احترامها » .
(٥) ب : « صفاته » .
(٦) س : « الصُّلحاء » .
(٧) البيتان من شعر مجنون ليلى ، كما في (ديوانه) ص١٧٠ .

ولمثلِ ذلك نُقَبِّلُ[1] الحَجَرَ الأسود ، ويَحْرُم على المُحْدِث مَسُّ[2] المصحفِ ؛ أسْطُرِهِ وحواشيه التي لا كِتابةَ فيها ، وجِلْدِه وخَريطتِه التي هو فيها ، فويلٌ لِمَنْ زعَم أنّ كلامَ اللّهِ القديمَ شيءٌ مِن ألفاظِ العِبَاد ، أو رَسْمٌ مِن أشكالِ المِداد .

واعتقادُ الأشعريّ رحمه اللّهُ يَشتمِلُ[3] على ما دلَّت عليه أسماءُ اللّهِ التسعةُ والتسعون ، التي سَمَّى بها نَفْسَه في كتابه وسُنّةِ رسولِ الله ﷺ ؛ وأسماؤه مُنْدَرِجةٌ في أربع كلماتٍ ، هُنَّ الباقياتُ الصّالحات :

الكلمة الأولى : قول : « سُبْحانَ اللّهِ » ، ومعناها في كلامِ العرب : التنزيهُ والسَّلْبُ ، وهي مشتملةٌ على سَلْبِ العَيْبِ والنّقصِ عن ذاتِ اللّهِ وصفاتِه ، فما كان مِن أسمائِه سَلْباً فهو مُنْدرِجٌ تحتَ هذه الكلمة : كالقُدُّوس ، وهو الطاهرُ مِن كلِّ عَيب[4] ؛ والسَّلامُ ، وهو الذي سَلِم مِن كلّ آفةٍ .

الكلمة الثانية : قول : « الحَمْدُ لله » ، وهي مشتملةٌ على إثبات ضُرُوبِ الكمالِ لذاتِه وصفاتِه ، فما كان مِن أسمائِه متضمِّناً للإثبات ، كالعليم والقدير والسَّميع والبصير ، فهو مُنْدَرِجٌ[5] تحت الكلمةِ الثانية ،

---

(١) س : « يُقَبِّل » .

(٢) س : « أن يمس » .

(٣) س : « مشتمل » .

(٤) قال المؤلِّف رحمه الله في كتابه : (شجرة والمعارف والأحوال) ص٣١ : « وثمرة معرفته ـ أي القُدُّوس ـ: التعظيم والإجلال . والتخلُّقُ به بالتطهير مِن كلّ حرامٍ ومكروه وشبهة وفضلِ مباحٍ شاغِلٍ عن مولاك » .

(٥) حتى هنا تنتهي النسخة (ب) .

فقد نَفَيْنَا بقولنا : « سبحان الله » كلَّ عيبٍ عَقَلْناه وكلَّ نقص فَهِمناه ، وأثبتنا بـ « الحَمدُ لِلّه » كُلَّ كمالٍ عَرَفناه ، وكُلَّ جلالٍ أدركناه ؛ ووراءَ ما نَفَيْناه وأثبتناه شأنٌ عظيم قد غابَ عَنّا وجَهِلْناه ، فنحقِّقُه مِن جهةِ الإجمال بقولنا : « اللّهُ أكْبَر » وهي الكلمة الثالثة ، بمعنى أنّه أجَلُّ مما نَفَيْنَاه وأثبتناه ، وذلك معنى قولِه ﷺ : « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ على نفسِك »[١] ، فما كان مِن أسمائِه مُتَضَمِّناً لِمَدْحٍ فوقَ ما عَرَفناه وأدركناه ، كالأعلى والمُتَعَالي[٢] ، فهو مندرجٌ تحت قولِنا : « اللّهُ أكْبَر » فإذا كان في الوجودِ مَن هذا شأنُه نَفَيْنا أنْ يكونَ في الوجودِ مَن يُشاكِلُه أو يُناظِره ، فحقَّقْنا ذلك بقولنا : « لا إلهَ إلاّ اللّهُ » وهي الكلمة الرابعة ؛ فإنّ الأُلوهيَّةَ ترجعُ إلى استحقاقِ العُبوديّة ، ولا يستحِقُّ العُبودِيَّة إلاَّ مَنِ اتَّصفَ بجميعِ ما ذكرناه ، فما كان مِن أسمائه متضمِّناً للجميع على الإجمال ، كالواحدِ والأَحَدِ وذي الجلال والإكرام ، فهو مُنْدَرِجٌ تحت قولنا : « لا إلهَ إلاّ اللّهُ » وإنما استحقَّ العبوديَّةَ لِما وَجب له مِن أوصافِ الجلال ونُعُوتِ الكمال[٣] الذي

---

(١) روى مسلم (٤٨٦) في الصلاة : باب ما يقال في الركوع والسجود ، وغيرُه ، عن عائشة ، قالت : فَقَدْتُ رسولَ الله ﷺ ليلة من الفِراش ، فالتمستُه ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : « اللهم ، أعوذ برضاك مِن سَخَطِك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسِك » .

(٢) ع : « المتعال » .

(٣) قال الإمام العز رحمه الله في كتابه الفذّ (الإمام في بيان أدلّة الأحكام) : « كلمةُ التوحيد تدلّ على التكليف بالواجب والحرام ، إذ معناها : لا معبودَ بحقٍّ إلا الله . =

لا يَصِفُهُ[1] الواصِفون[2] ولا يَعُدُّه العادُّون :

حُسْنُكَ لا تَنْقَضي عَجائِبُهُ كالبَحْرِ حَدِّثْ عنهُ بِلا حَرَجِ

فسُبْحانَ مَن عَظُم شأنُه وعَزَّ سلطانُه ، ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الرحمن : ٢٩] لافتقارِهم إليه ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، لاقتداره عليه ، له الخَلْقُ والأمرُ والسلطانُ والقَهْر ، فالخلائقُ مقهورون في قَبْضتِه : ﴿ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزُّمَر : ٦٧] ، ﴿ يُعذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢١] فسُبْحان الأزليِّ الذاتِ والصِّفات ، ومُحْيي الأموات وجامع الرُّفات ، العالِم بما كانَ وما هو آت .

ولو أُدْرِجَتِ الباقياتُ الصالحاتُ في كلمةٍ منها على سبيلِ الإجمال ، وهي « الحمدُ لله » لاندرجت فيها ، كما قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي اللّهُ عنه : لو شِئْتُ أن أُوقِرَ بعيراً مِن قولِك : « الحمدُ لله » لَفعلتُ . فإنَّ الحمدَ هو الثَّناء ، والثَّناءُ يكونُ بإثباتِ الكمالِ تارةً وبسَلْبِ النَّقصِ أخرى ، وتارةً بالاعترافِ بالعجز عن دَرْكِ الإدراك ، وتارةً بإثباتِ

= والعبادةُ هي الطاعةُ مع غاية الذُّلِّ والخُضوع ، فقد نَصَّ بالاستثناء على أنّه مستحِقٌّ لها ، وأمّا نفيُها عن ما عداه ، فيجوزُ أن يكونَ حُكْماً بتحريمِ ذلك في حقِّ غيرِه وهو الظاهر ، ويجوزُ أن يكونَ إخباراً عن النَّفي الأصليّ ، ويكون تحريمُ عبادةِ غيرِه مأخوذاً مِن قوله : ﴿ أمَرَ ألّا تعبُدوا إلّا إيّاه ﴾ [يوسُف : ٤٠] ، أو من الإجماع ، وكذلك كلّ نفي في هذا المعنى كقوله : ﴿ فلا جُناحَ عليهما ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، ﴿ فلا إثمَ عليه ﴾ [البقرة : ١٧٣] » .

(١) ع : « يوصفه » .

(٢) سقطت من (ع) .

التفرُّدِ بالكمال ، والتفرُّدُ بالكمال مِن أعلى مَراتب المدحِ والكمال ، فقد اشتملَتْ هذه الكلمةُ على ما ذكرناه في الباقيات الصالحات ؛ لأنَّ الألفَ واللامَ فيها لاستِغْراق جِنْس المدح والحمد ، مِمّا عَلِمناه وجَهِلناه ، ولا خُرُوجَ للمدح عن شيء مِمّا ذكرناه ، ولا يستحقُّ الإلٰهيَّةَ إلاَّ مَنِ اتّصفَ بجميعِ ما قَرَّرناه ، ولا يخرجُ عن هذا الاعتقاد مَلَكٌ مُقرَّبٌ ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَل ، ولا أحدٌ مِن أهلِ المِلَل ، إلاّ مَن خذله اللّهُ فاتَّبعَ هواه وعَصَى مَوْلاه ، أولئك (قومٌ قد) غَمرهم ذُلُّ الحجاب ، وطُرِدُوا عنِ الباب ، وبَعُدوا عن ذلك الجَناب ، وحُقَّ لِمَن حُجِب في الدنيا عن إجلالِه ومعرفتِه ، أنْ يُحْجَبَ في الآخِرة عن إكرامِه ورؤيتِه :

إرْضَ لَمَنْ غابَ عنك غَيْبَتَهُ فـذاك ذَنْبٌ عِقابُـهُ فِيـهِ

فهذا إجمالٌ مِن اعتقاد الأشعريّ رحمه اللّهُ تعالى ، واعتقادِ السَّلَف وأهلِ الطريقةِ والحقيقة ، نِسْبَتُه إلى التفصيل الواضح كنِسبْة القطرة إلى البحر الطافِح :

يَعْـرِفُه البـاحِثُ مِن جِنْسِـه وسـائـرُ النّـاسِ لَـهُ مُنْكِـرُ

[غيره][1] :

لَقد ظَهَرْتَ فلا تَخْفَى على أحَدٍ إلاّ علَى أكْمَهٍ لا يَعْرِفُ القَمَرا

والحَشْوِيّةُ المُشَبِّهة ، الذين يُشَبِّهون اللّهَ بخَلْقه ، ضربان : أحدُهما لا يَتَحاشى مِن إظهار الحَشْو : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة : ١٨] ، والآخَرُ يتستَّر بمذهبِ السَّلَف ،

---

(١) زيادة من (س) .

لِسُحْتٍ يأكلُه أو حُطامٍ يأخذه :

أظْهَـرُوا لِلنَّـاسِ نُسْكـاً وعَـلَى المَـنْقُـوشِ دارُوا[1]

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ [النِّساء : ٩١] ، ومذهبُ السَّلَفِ إنّما هو التوحيدُ والتّنزيه ، دُونَ التَجسيم والتشبيه ، وكذلك[2] جميعُ المبتدعة يَزعُمون أنّهم على مذهبِ السَّلَفِ ، فهم كما قال القائل :

وكُـلٌّ يَدَّعُـونَ وِصـالَ لَيْـلَى ولَيْـلَى لا تُقِـرُّ لَهُمْ بِـذاكـا[3]

وكيف يُدَّعَى على السَّلَفِ أنّهم يعتقدون التجسيمَ والتشبيهَ ، أو يسكُتون عند ظُهور البِدَع ، ويخالفون قولَه تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] .

وقوله جَلَّ قولُه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، وقوله تعالى ذكرُه : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤] .

---

(١) البيت لمحمود الورّاق ، المتوفى في حدود مئتين وثلاثين ، وهي من أبيات تصوِّر وجوهاً من النفاق يمثّلها بعض مَن يظهرون التدين أمام الناس ، وهم يطوون في حقيقتهم جشعاً مادياً وتكالباً على المال ، والأبيات كما في (العقد الفريد) ٢١٦/٣ و(الكشكول) ٢١٦/٢ :

أظهـروا لـلنـاس ديـنـاً وعـلى الـديـنـار داروا
ولـه صـامـوا وصَـلّوا ولـه حـجّـوا وزاروا
لـو بـدا فـوق الـثُريـا ولهـم ريشٌ لـطاروا

(٢) س : « ولذلك » .

(٣) يُروى صدرُ البيت كما في (ديوان الصبابة) : ٣ : وكلّ يدّعي وَصْلاً بليلى .

والعلماءُ وَرَثة الأنبياء ، فيجبُ عليهم مِن البيان ما يجبُ[١] على الأنبياء .

وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، ومِنْ أنكَرِ المُنكَراتِ التَّجسيمُ والتَّشبيهُ ، ومِنْ أَفْضلِ المعروفِ التوحيدُ والتَّنْزيه[٢] ، وإنّما سكَتَ السَّلَف قبلَ ظُهور البِدَع ، فورَبِّ السماءِ ذاتِ الرَّجْعِ والأرضِ ذاتِ الصَّدْع ، لقد تَشَمَّر السَّلَفُ للبِدَعِ لما ظَهرت ، فقمَعوها أتَمَّ القَمْع ، وردَعُوا أهلَها أشدَّ الرَّدْع ، فردُّوا على القَدَرِيّة والجَهْمِيّة والجَبْرِيّة ، وغيرِهم مِن أهلِ البِدَع ، فجاهدوا في اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ .

والجِهادُ ضربان : ضَرْبٌ بالجَدَلِ والبَيان ، وضَرْبٌ بالسَّيْف والسِّنان ؛ فَلَيْتَ شِعْرِي ، فما الفرقُ بينَ مُجادَلةِ الحَشْوِيَّة وغيرهم من أهلِ البِدَع ! ولولا خُبْثٌ في الضمائر وسُوءُ اعتقادٍ في السَّرائر : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النِّساء : ١٠٨] ، وإذا سُئل أحدُهم عن

---

(١) س : « ما وجب » .

(٢) يقول الإمام العز رحمه الله في (شجرة المعارف والأحوال) ص٤ : « تشرُف الأعمال الظاهرة والباطنة بأنفسها ، ومتعلّقاتها ، وثمراتها ، وبما هي وسيلة إليه ، وحاثّة عليه .
فأفضلُ أعمالنا معرفةُ الذات والصفات لأنَّ متعلّقاتها أشرفُ المتعلّقات ، وثمارَها أفضلُ الثمرات ، وكذلك جميع ما يتعلّق بالله من الطاعات » .

مسألةٍ مِن مسائل الحَشْو أَمرَ بالسُّكُوت عن[١] ذلك ، وإذا سُئل عن غيرِ الحَشْوِ مِن البِدَع أجابَ فيه بالحَقِّ ، ولولا ما انطوى عليه باطنُه مِن التجسيمِ والتشبيه لَأجابَ في مسائل الحَشْوِ بالتوحيد والتنزيه ، ولم تزل هذه الطائفةُ المبتدعة قد ضُرِبتْ عليهمُ الذِّلَّةُ أينما ثُقِفُوا : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] ، لا تَلُوح لهم فُرْصةٌ إلا طاروا إليها ، ولا فِتنةٌ إلّا أكَبُّوا عليها ، وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ وفضلاءُ أصحابه وسائرُ علماء السَّلَف بُرَاءُ إلى الله ممّا نَسَبُوه إليهم ، واختلَقُوا عليهم ، وكيف يُظَنُّ بأحمدَ (بنِ حَنْبلٍ) وغيرِه من العلماء ، (أن يعتقدوا) أن وَصْفَ اللّهِ القديمَ بذاتِه هو عينُ[٢] لفَظِ اللّافِظِين ، ومِدادِ الكاتبين ، مع أنّ وصفَ اللّهِ قديمٌ ، وهذه الألفاظ والأشكال حادثةٌ بضرورةِ العقل[٣] وصريحِ النَّقْل ، وقد أخبر اللّهُ تعالى عن حُدوثِها في ثلاثةِ مَواضِعَ مِن كتابه :

الموضع الأوّل ، قولُه : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِن رَّبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء : ٢] جعَلَ الآتيَ مُحْدَثاً ، فمَنْ زعَم أنّه قديمٌ فقد رَدَّ على الله سبحانه وتعالى ، وإنّما هذَا المُحْدَث[٤] دليلٌ على القديم ، كما أنَّا إذا كَتبْنا اسمَ اللّهِ عَزَّ وجَلّ في ورقةٍ لم يَكُنِ الرَّبُّ القديمُ حَالّاً في تلك الورقة ، فكذلك الوصفُ القديم إذا كُتِبَ في شيء لم يَحُلَّ الوَصفُ المكتوبُ حيثُ حَلَّتِ الكتابةُ .

---

(١) ع : « في » .
(٢) تحرّفت في (س) إلى : « غير » .
(٣) تحرّفت في (ع) إلى : « الفعل » .
(٤) س : « الحادث » .

الموضع الثاني ، قولُه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ـ ٤٠] ، وقولُ الرَّسولِ صفةٌ للرَّسول ، ووصفُ الحادِثِ حادِثٌ يدلُّ على الكلامِ القديم ، فمَن زعَم أنَّ قولَ الرسولِ قديمٌ فقد رَدَّ على ربِّ العالمين ، ولم يقتصِرْ سبحانه وتعالى على الإخبار بذلك[1] حتّى أقسَمَ على ذلك بأَتَمِّ الأقسام ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ : أي تُشاهِدون ، ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ : أي ما لا تَرَوْنَه[2] ، فاندرج في هذا القَسَمِ ذاتُه وصِفاتُه ، وغيرُ ذلك من مخلوقاته .

الموضع الثالث ، قوله جَلَّ قولُه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٥ ـ ٢٠] .

والعَجَبُ ممّن يقول : القرآنُ مركَّبٌ مِن حَرْفٍ وصوت ، ثم يَزعُمُ أنّه في المصحف ، وليس في المصحف إلّا حَرْفٌ مُجَرَّدٌ لا صوتَ معه ، إذ ليس فيه حرفٌ مُتكَوِّنٌ[3] من صوت ، فإنَّ الحرفَ اللفظيَّ ليس هو الشكلَ الكتابيَّ ؛ ولذلك يُدْرَك الحرفُ اللفظيُّ بالآذانِ ولا يُشاهَدُ بالْعِيان ، ويُشاهَدُ الشكلُ الكتابيُّ بالْعِيان ولا يُسْمَعُ بالآذان ، ومَن توقَّفَ في ذلك فلا يُعَدُّ مِن العُقلاء فَضْلاً عن العلماء ، فلا أكثَرَ[4] اللّهُ في المسلمين مِن

(١) ع : « على ذلك » بدل « على الإخبار بذلك » ، والزيادة من (س) .
(٢) س : « ما لم تَرَوْه » بدل « ما لا ترونه » .
(٣) س : « مكتوب عن » بدل « متكوِّن من » .
(٤) ع : « كثر » .

أهلِ البِدَع والأهواء ، والإضلال والإغواء .

ومَن قال بأنَّ الوَصفَ القديمَ حالٌّ في المصحف ، لَزِمه إذا احترق المصحفُ أن يقول : إنّ وصفَ اللّهِ القديمَ احتَرق ، سبحانه وتعالى عمَّا يَقُولون عُلُوّاً كبيراً ، ومِنْ شأنِ القديم أن لا يَلْحَقَه تغيُّرٌ ولا عَدَمٌ ، فإنَّ ذلك مُنافٍ للقِدَم .

فإنْ زَعَموا أنَّ القرآنَ مكتوبٌ في المصحفِ غيرُ حالٌّ فيه ، كما يقولُه الأشعريُّ ، فلِمَ يلعنون الأشعريَّ رحمه الله ؟ وإنْ قالوا بخلافِ ذلك ، فانظر : ﴿ كَيْفَ يَفْتَرُون عَلَى اللّهِ الكَذِبَ ، وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً ﴾ [النِّساء : ٥٠] ، ﴿ وَيَوْمَ القِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزُّمَر : ٦٠] .

وأمّا قولُه سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : ٧٧ ، ٧٨] فلا خِلاف بين أئمة العربية أنّه لا بُدَّ مِن كلمةٍ محذوفة يتعلَّق بها قولُه : ﴿ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ ، ويجبُ القطع بأنَّ ذلك المحذوفَ تقديره : « مكتوبٌ في كتابٍ مكنون » لما ذكرناه ، وما دلَّ عليه العقلُ الشاهِدُ بالوَحدانيَّة وبصحَّةِ الرسالة ، وهو مَناطُ التكليفِ بإجماعِ المسلمين ، وإنّما لم يُسْتدلَّ بالعقل على القِدَم[1] وكَفى به شاهِداً ، لأنّهم لا يسمعون شهادَتَه[2] ، مع أنَّ الشَّرعَ قد عَدَّل العقلَ وقَبِلَ شهادَته ، واستدلَّ به في مواضعَ مِن كتابه ، كالاستدلال بالإنشاء على العادة[3] ،

(١) تحرفت العبارة في (ع) إلى « وإنما لم يستدلّ الفعل على القوم » .
(٢) ع : « ألا إنهم لا يسمعون شهادة » ؛ والمثبت من (س) .
(٣) س : « الإعادة » !

وكقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

فيا خَيْبَةَ مَن رَدَّ شاهِداً قَبِله اللَّهُ ، وأسقط دليلاً نَصَبه الله ، فهم يَرجِعُون إلى المنقول . فلذلك استَدْلَلْنا بالمنقول وتركنا المعقول كَمِيناً إنِ احتجنا إليه أبرزناه ، وإنْ لم نحتَجْ إليه أخَّرْناه ، وقد جاء في الحديث المشهور[1] : « مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَأَعْرَبَهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، ومَنْ قَرَأَهُ وَلَمْ يُعْرِبْهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ (مِنْهُ) حَسَنَةٌ »[2] ، والقديم لا يكون مَعِيباً باللَّحْن وكاملاً بالإعراب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٩] ، فإذا أخبَر رسولُه ﷺ بأنّا

---

(١) تحرفت في (س) إلى « الصحيح » .

(٢) أخرجه البيهقي في « الجامع لشعب الإيمان » ٥/٢٤١ = (٢٠٩٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بإسناد ضعيف ، ولفظه : « مَنْ قرأ القرآن فأعرب في قراءته ، كان له بكلّ حرفٍ منه عشرون حسنة ، ومَن قرأ بغير إعراب كان له بكل حرفٍ عشرُ حسنات » .

وأخرجه البيهقي في (الجامع لشعب الإيمان) ٥/٢٤١ = (٢٠٩٧) ، وابن عدي في (الكامل) ٧/٢٥٠٦ ، وأبو عثمان الصابوني في (المئتين) كما في (كنز العمال) ١/٥٣٣ = (٢٣٨٩) ، بإسناد ضعيف جداً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « مَن قرأ القرآن فأعربَ كلَّه فله بكلّ حرفٍ أربعون حسنة ، فإن أعربَ بعضَه ولحنَ في بعضه فله بكلّ حرفٍ عشرون حسنة ، وإن لم يُعربْ منه شيئاً فله بكلّ حرفٍ عشرُ حسنات » .

نُجْزَى على قراءةِ القرآن ، دَلَّ على أنّه مِن أعمالنا ، وليست أعمالُنا بقديمةٍ ، وإنما أُتِيَ للقومِ[1] مِن قِبَلِ جَهْلِهم بكتابِ الله وسُنّةِ رسولِه ﷺ ، وسَخافةِ العقلِ وبَلادةِ الذِّهن ، فإنَّ لفظَ القرآنِ يُطْلَقُ في الشَّرعِ واللِّسان على الوصفِ القديم ، ويُطْلَق على القِراءةِ الحادثة ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : ١٧] (أراد بقُرْآنه : قِراءَتَه ، إذ ليس للقرآنِ قرآنٌ آخَرُ) ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي قِراءتَه . فالقراءةُ غيرُ المقروء ، والقراءةُ حادِثةٌ والمقروءُ قديمٌ ، كما أنّا إذا ذكرنا اللّهَ عَزَّ وجَلَّ كان الذِّكرُ حادِثاً والمذكورُ قديماً ؛ فهذه نُبْذَة مِن مذهبِ الأشعريّ رحمه الله .

إذا قالَتْ حَذامِ فَصَدِّقُوهَا فإنَّ القولَ ما قالَتْ حَذامِ[2]

والكلامُ في مثلِ هذا يَطُول ، ولولا ما وجَبَ على العلماءِ مِن إعزازِ الدِّين وإخمالِ المبتدِعين ، وما طَوَّلَت به الحَشْوِيَّةُ ألسنَتَهم في هذا الزمان ، مِن الطَّعنِ في أعراضِ الموحِّدين ، والإزراءِ على كلامِ المُنَزِّهين ، لما أَطَلْتُ النَّفَسَ في مثلِ هذا مع اتِّضاحِه ؛ ولكنْ قد أمَرنا

(١) س : « القومُ » .

(٢) القائل هو لُجَيْم بنُ صَعْب ، كما في (لسان العرب) : مادة (حذم) و(رقش) ، و« مغني اللبيب » الشاهد رقم (٤٠٤) ، وفي (لسان العرب » : (حذم) ، أنَّ القائلَ هو وَسِيم بنُ طارق .
و« حَذَامِ » : هي امرأةُ لُجَيْم بن صَعْب ، وهي بنتُ الْعَتِيك بنِ أسْلَم بنِ يَذْكُرَ بن عَنَزَة ؛ كما في (اللسان) : (حذم) .
وذكَر ابن هشام في (مغني اللبيب) روايةً ، وفيها : « فأنصتُوها » بدل « فصدِّقوها » .

اللّهُ بالجهاد في نُصْرةِ دينِه ، إلاّ أنّ سلاحَ العالِمِ عِلمُهُ ولِسَانُه ، كما أنَّ سلاحَ المَلِكِ سَيفُه وسِنانُه ؛ فكما لا يجوزُ للملوكِ إغمادُ أسلحتِهم عن الملحِدين والمشركين ، لا يجوزُ للعلماءِ إغمادُ ألسنتِهم عنِ الزائِغين والمبتدِعين ؛ فمَنْ ناضَلَ عنِ اللّهِ وأظهَر دِينَ اللّهِ كان جديراً أنْ يَحرُسَه اللّهُ بعينِه التي لا تنام ، ويُعِزَّه بعزِّه الذي لا يُضام ، ويَحُوطَه برُكْنِه الذي لا يُرام ، ويحفظَه مِن جميعِ الأنام : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : ٤] ، وما زال المُنَزِّهُون والمُوَحِّدُون يُفْتُون بذلك على رؤوسِ الأشهادِ في المحافِلِ والمَشاهِد ، (و) يَجْهَرون به في المَدارِسِ والمساجد ، وبِدْعَةُ الحَشْوِيَّة كامنةٌ خفيَّةٌ لا يتمكّنون من المجاهرةِ بها ، بل يَدُسُّونَها إلى جَهَلةِ العَوامّ ، وقد جَهَروا بها في هذا الأوان ، فَنسألُ اللّهَ تعالى أنْ يُعَجِّلَ بإخمالِها كعادتِه ، ويَقْضِيَ بإذلالِها على ما سَبَق مِن سُنَّتِه ، وعلى طريقةِ المنزِّهين والموحِّدين دَرَج الخَلَفُ والسَّلَفُ ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

والعَجَبُ أنَّهم يَذُمُّون الأشعريَّ بقولِه : إنَّ الخُبْزَ لا يُشْبِع ، والماءَ لا يُرْوِي ، والنارَ لا تُحرِق ، وهذا كلامٌ أنزل الله معناه في كتابِه ؛ فإنَّ الشِّبَعَ والرِّيَّ والإحراقَ حوادثُ تَفَرَّد الربُّ بِخَلْقها ، فلم يَخْلُقِ الخبزُ الشِّبَعَ ، ولم يَخلُق الماءُ الرِّيَّ ، ولم تَخْلُقِ النارُ الإحراقَ ، وإنْ كانت أسباباً في ذلك ، فالخالق تعالى هو المسبِّبُ (دون السَّبَب) ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَ اللّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] ، نَفى أنْ يكونَ رسولُه ﷺ خالِقاً للرَّمْي ، وإنْ كان سبباً (فيه) ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾

[النَّجم : ٤٣ ، ٤٤] ، فاقتطع الإضحاكَ والإبكاءَ والإماتةَ والإحياءَ عن أسبابها[1] وأضافَها إليه ، فكذلك اقتطَعَ الأشعريُّ رحمه الله تعالى الشِّبَعَ والرِّيَّ والإحراقَ عن أسبابها وأضافَها إلى خالقِها ، لقوله تعالى : ﴿ اللّهُ [ربُّكم لا إلهَ إلاّ هُو] خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] ، وقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّهِ ﴾ [فاطر : ٣] ، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولما يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩] ، ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٤] .

وكم مِن عائبٍ قولاً صَحِيحاً وآفَتُه مِن الفَهْمِ السَّقِيمِ[2]

فسُبحانَ مَن رَضِيَ عن قومٍ فأدناهم ، وسَخِطَ على آخَرِين فأقصاهم : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ .

وعلى الجملة ، ينبغي لكلِّ عالِمٍ إذَا أُذِلَّ الحقُّ وأُخْمِلَ الصّوابُ أنْ يبذُلَ جُهْدَهُ في نصْرتِهما ، وأنْ يجعلَ نفسَهُ بالذُّلِّ والخُمولِ أولَى منهما ، وإنْ عَزَّ الحقُّ وَظَهر الصَّوابُ أنْ يَستظِلَّ بظلِّهما ، وأنْ يكتَفِيَ بالْيَسيرِ مِنْ رَشاشِ غيرِهما :

قليلٌ مِنْك يَنْفَعُنِي ولكِنْ قَلِيلُك لا يُقالُ لَه قَلِيلُ

والمُخاطرةُ بالنفوسِ مَشروعةٌ في إعزاز الدِّين ، ولذلك يجوزُ للبَطلِ

---

(١) وقع قوله : « عن أسبابها » في (ع) بعد : « الإضحاك والإبكاء » ؛ والمثبت من (س) .

(٢) البيتُ لأبي الطَّيّب المتنبي ، كما في (ديوانه) ٤/٢٤٦ .

من المسلمين أن ينغَمِسَ في صفوفِ المشركين ، وكذلك المُخاطرةُ بالأمر بالمعروفِ والنّهي عن المُنكَرِ ونُصْرةِ قواعدِ الدِّين بالحُجَجِ والبراهين (مشروعةٌ) ، فمن خَشيَ على نفسِه سقَط عنه الوجوبُ وبَقِيَ الاستحبابُ ، ومَن قال بأنَّ التَّغريرَ بالنُّفوسِ لا يجوز ، فقد بَعُدَ عنِ الحقّ ونأى عن الصواب .

وعلى الجملة ، فمَن آثَر اللّهَ على نفسِه آثره اللّهُ ، ومَن طلَبَ رِضا اللّهِ بما يُسْخِطُ الناسَ رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناسَ ، ومَن طلَبَ رِضا الناسِ بما يُسْخِطُ اللّهَ سَخِط اللّهُ عليه وأسخط عليه الناسَ ، وفي رِضا الله كفايةٌ عن رِضا كلِّ أحد :

فَلَيْتَـكَ تَحْلُو والحَيَاةُ مَـرِيـرةٌ وليتَكَ تَرْضَى والأَنَامُ غِضابُ[1]

غيره :

في كلِّ شيءٍ إذا ضَيَّعْتَه عِوَضٌ و[ما من][2] اللّهِ إنْ ضَيَّعْتَه عِوَضُ

وقد قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام : « اِحْفَظِ اللّهَ يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ »[3] . وجاء في حديث : « ذَكِّرُوا اللّهَ بِأَنْفُسِكُمْ فإنَّ اللّهَ

(١) البيت لأبي فراس الحمداني ، كما في (ديوانه) ١/ ٢٤ .

(٢) س : « ليس في » .

(٣) أخرجه أحمد في (المسند) ١/ ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، والترمذي (٢٥١٨) في صفة القيامة : باب (٦٠) ، عن ابن عباس قال : كنتُ خلف رسول الله ﷺ يوماً ؛ فقال : « يا غلام إنِّي أعلِّمك كلماتٍ : اِحْفَظِ اللّهَ يَحفَظْك ، اِحْفَظِ اللّهَ تجدْهُ تُجاهك ، إذا سألتَ فاسْأَلِ الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلَمْ أنَّ الأُمّة لو اجتمعَتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كَتَبَه اللّهُ لك . ولَو اجتمعوا =

يُنزِلُ العَبْدَ مِنْ نَفْسِه (حَيْث أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ »[٢] ، حتى) قال بعضُ الأكابِر : مَن أرادَ أنْ يَنْظُرَ منزلتَه عِندَ الله فلينظُرْ كيف منزلةُ اللّهِ عِنْدَه .

اللهُمَّ فانصُرِ الحقَّ ، وأظْهِرِ الصوابَ ، وأبْرِمْ لهذه الأمّةِ أمراً رَشَداً[٢] ، يَعِزُّ فيه وَلِيُّك ، ويَذِلُّ فيه عدوُّك ، ويُعْمَلُ فيه بطاعتِك ، ويُنْهَى فيه عن معصيتِك .

والحمد لله الذي إليه استِنادي وعليه اعتمادي ، وهو حَسْبِي ونِعْم الوَكِيلُ ، وصلّى الله وسَلَّم ، وشرَّف وكَرَّم ، وبجَّل وعظَّم ، على سيِّدِنا محمّد وعلى آلِه وصحبِه أجمعين ، آمين آمين .

= على أنْ يَضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلاّ بشيء قد كَتَبَهُ اللّهُ عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ ، وجَفَّتِ الصُّحُف » .

قال الترمذي : « حديث حسن صحيح » .

(١) لم أجد الحديث فيما وقع بين يديّ من كتبه .

(٢) س : « رشيداً » .